﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ٥٦﴾ [الكهف: 56]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

وظيفةُ الرُّسل التَّبشيرُ والإنذار وليس إرسالَ العذاب ولا المجادلةَ الباطلةَ

لمّا أخبرَ الله تعالى في الآية السّابقة عن إتيان العذاب للكافرين؛ بيَّن أنَّ ذلك ليس من وظيفة الرَّسولِ، إنَّما هو إلى الله وحده؛ لأنَّه تعالى أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ بالثَّوابِ على الطّاعَةِ ومُنْذِرينَ بالعِقابِ على المَعْصيَةِ لكَيْ يُؤْمِنوا طَوْعًا لا كرهًا[1].

وأيضًا: بَعْدَ أَنْ أَشارَ إلى جدالِهم في هُدَى القُرْآنِ بما مَهَّدَ لَهُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، وأَشارَ إلى أَنَّ الجدالَ فيه مُجَرَّدُ مُكابَرَةٍ وعِنادٍ، وأنَّه لا يحُفُّ بالقرآن ما يمنع من الإيمان به، كما لم يحفَّ بالهدى الَّذي أرسل إلى الأمم ما يمنعهم الإيمان به، أَعْقَبَ ذَلِكَ بأَنَّ وظيفَةَ الرُّسُلِ التَّبْليغُ بالبشارة والنِّذارة لا التَّصدّي للمجادلة؛ لأَنَّها مُجادَلَةٌ لَم يُقْصَدْ منها الاسترشاد، بل الغايةُ منها إبْطالُ الحقِّ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾: يدلّ الأصل (جدل) على اسْتِحْكامِ الشَّيْءِ بقوَّةٍ وشدَّةٍ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيه، ومنه الجَدْوَلُ: وهو نَهْرٌ صَغيرٌ مُمْتَدٌّ، وماؤُهُ أَقْوَى في اجْتِماعِ أَجْزائِه مِنَ المُنْبَطِحِ السّائِحِ، وغُلامٌ جادِلٌ؛ إذا اشْتَدَّ، والأَجْدَلُ: الصَّقْرُ، سُمّيَ بذَلِكَ لقوَّتِه، والجِدالُ: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ومُراجَعَةِ الكَلامِ، وأصلُ الجدال من: جَدَلْتُ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 476، والبقاعي، نظم الدرر: 4/ 482.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 346.

الحبلَ، أيْ: أحكمتُ فتْلَهُ، فكأنَّ المتجادِلَيْنَ يَفتلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه في شدَّة، وذهب بعضُهم إلى أنَّ أصل الجدال الصِّراعُ وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالَة، وهي الأرضُ الصُّلبة[1]، والفعل في الآية الكريمة يشير إلى المنازعة والمغالبة لإثناء المؤمنين عن إيمانهم.

2) ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾: الأصل (دحض) يدلّ على انزلاق الجسم بثقله كلِّه لزَلَقٍ مَقرِّه وانحداره، ويدلُّ الدَّحضُ على زَوالٍ وزَلَقٍ، يُقالُ: دَحَضَتْ رِجْلُهُ: زَلِقَتْ، وزالَتْ عن مَوْضِعِ تَخَطّيها، ومِنْهُ: دَحَضَتِ الشَّمسُ، أيْ: زالَتْ عن موضعِها، ويُقال: مكانٌ دَحضٌ، أيْ: منزلٌ مزلق لا يثبت فيه قدمٌ ولا حافرٌ، ودَحَضَتْ حُجَّةُ فُلانٍ؛ إذا لَم تَثْبُتْ[2]، ومعنى: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، أيْ: ليُزيلوا به الحقَّ، ويُبطلوه[3].

3) ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾: (أخذ) يدلّ على تحصيل الشَّيء في حوزةٍ بقوَّةٍ، وذلك بالتناول تارةً، وتارةً بالقهر والغلبة، ويُعبَّرُ عن الأسير بالأَخيذِ والمأخوذ؛ لأنَّهُ يُؤخذ بقوَّةٍ وإحكامٍ، ومنهُ الإِخاذَةُ، وهي الأرضُ التي يَأْخُذُها الرَّجلُ، فيحوزُها لنفسِه، ويتَّخِذُها، ويُحْييها، وكلُّ ما جاء في القرآن مِنَ الأخذ بالعذاب وما في معناه؛ فهو من التَّحصيلِ في حوزةٍ والقبضِ بقوَّةٍ، كقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجر: 73]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [العنكبوت: 37]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النِّساء: 153]، و﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ بمعنى: أخذوا لأنفسهم بقوَّةٍ، وتَمَسَّكوا باتِّخاذ آيات الله هزوًا[4].

4) ﴿هُزُوًا﴾: (هزأ) أصلٌ يدلّ على تحرُّكٍ أو تحريكٍ قويٍّ؛ بسبب الخفَّة، كما في تحريك الراحلة والإسراع، ومنه: هزَأْتُ الرّاحلةَ؛ إذا حرَّكتها، وأصل هذا من استخفاف المُستهزئ بالمُستَهزَأ به وذهاب قيمته عندَهُ، ويدلُّ الهَزْءُ على مَزْحٍ في خفيةٍ، ففيه معنى السُّخرية، وقد يُقال لما هو كالمَزْح، فممّا قُصِدَ به المَزْحُ قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: 58]، وكلُّ ما وردَ في القرآن من مادَّة (هزأ)؛ فهو بمعنى السُّخرية مع استخفاف قدْرِ المستهزَأ به، ويُعدَّى الفعل بالباء، فيُقال: هَزِئتُ بك، واستهزأْتُ بك، ولا يُقال: هَزِئْتُ منك[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دحض).
(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 220، وابن الهائم، التّبيان في غريب القرآن، ص: 285.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أخذ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هزأ) و(هزؤ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ أنَّ البشارةَ لأهـلِ الإيـمـان، وأنَّ النِّذراة لأهل الكفر والطُّغيان

يقول عزَّ ذِكْرُهُ: وما نرسل رسلنا إلّا ليبشِّروا أهلَ الإيمان بالله وبرسولِه بجزيل ثوابه في الآخرة، ولينذروا أهلَ الكفرِ والتَّكذيب عظيمَ عقابِهِ، وأليم عذابه، فينتهوا عَنِ الشِّرك بالله، وينزجروا عن الكفر به ومعاصيه، ويُخاصم الذين كذَّبوا بالله ورسوله بالباطل، ليُبطلوا به الحقَّ، ويُزيلوه، ويذهبوا به، واتَّخذوا حُجَجَهُ الَّتي احتجَّ بها عليهم، وكتابه الذي أنزلَهُ إليهم، والنُّذُرَ التي أنذرهم بها سخريًّا يسخرون بها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية الكريمة:

المـجـازاةُ على الكفرِ بعد البلاغ راجـعٌ إلى الله تعالى

جاءتِ الجملةُ بطريق الوصل؛ لأنَّ المقامَ على معنى إشراكِها مع الجملة الَّتي سبقتها ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ في الجهة الجامعة، وبيانُهُ أنَّه لمّا أخبرَ في الآية السابقة بأنَّ المشركين امتنعوا من الإيمان مع أنَّ الهدى جاءهم؛ عطفَ على ما أخبرَ به هذه الآية؛ ليلفت خاطرَهم إلى أنَّ الرَّسول الذي جاءهم - سواء أكان هو الهدى أم أنَّه جاء بالهدى - ليس له أن يُدخل الإيمانَ في قلوبهم، وليس عليه هذا الأمرُ، فليس على الرُّسل إلّا أن يكونوا مُبشِّرين ومُنذرين، وأمّا المجازاة على الامتناع عن الإيمان بعد بشارة الرُّسل وإنذارهم للنّاس؛ فهو إلى الله تعالى، فهذه الآية تنفي أيَّ تقصيرٍ يمكن أن يتَّهمَ الرسلَ به الضعفاءُ مِن أهل الكفر والشِّرك والمعصية، فهي مِن تمام ما قبلَها؛ لأنَّ صدْرَ ما قبلها فيه ذِكْرُ المنعِ مِنَ الإيمان.

دلالةُ التَّعبيرِ بنون العظمةِ: ﴿نُرْسِلُ﴾:

علوُّ قدْرِ المرسلين بسـبب إرسـال الله تعالى لهم

عُبِّرَ في الفعل المضارع بنون العظمة؛ للإشعار بأنَّ إرسالَ الرُّسلِ من أمرِ الإله الواحد الأحد؛ إذ لا عظيمَ غيرُهُ، وفيه تنبيهٌ إلى علوِّ قدرِهم ورفعةِ منزلتِهم ووجوبِ الامتثال لأمرِهم والكفِّ عن نواهيهم،

وهذه النّونُ مؤسَّسةٌ على ما بين المُرْسِل ﷻ والمرسلين، من جناس الاشتقاق الذي يدلُّ على مدى قُرب الرُّسلِ منه ﷻ، ومَن كان قريبًا مِن العظيم؛ كان عظيمًا، فلهذا أُريد تعظيمُهم، فعُبِّر بنون العظمة.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿نُرْسِلُ﴾:

كـلُّ مـا يقوله الـرَّسـولُ المبلِّغ هـو بـأمـر الـلـه تعالى

عُبِّرَ بصيغة المضارع المفيدِ استمرارَ إرسال الرُّسل وتجدُّدَهُ للإيذانِ بأنَّ كلَّ ما يقوله الرَّسول محمَّدٌ ﷺ، هو بأمر الله تعالى وحده ومن تكليفه له، فهو الموحي إليه، وأنَّه ﷺ مُرسلٌ بهِ، فالآيةُ نزلت، والقرآنُ لا يزال يتنزَّلُ.

بديعُ الجناس في: ﴿نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

لا أحـدَ أكـرمُ عـلى الـلـه من رسله المصطفين الأخيار

جاءَ الكلامُ على طريق جناس الاشتقاقِ بين الفعلِ ﴿نُرْسِلُ﴾ واسم المفعولِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، للإشعار بقَدْرِ المرسلين العظيم، ورفعةِ منزلتِهم بين البشرِ، فهم قد أُرسلوا من قِبَلِ الله الملك الواحدِ الأحدِ، وفي هذا عظيمُ ترغيبٍ في التَّسليم لهم والإيمان بهم.

فائدةُ مجيءِ الوصف في: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

كـلُّ مـا يقوله المرسلون فمِنَ الله، فالائتمارُ بأمرِهم ائتمارٌ بأمره

لمّا كان قولُه: ﴿نُرْسِلُ﴾ يُفيد أنَّهم مرسلون بما يدلُّ عليه لفظُ الفعل؛ كان ذِكْر ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في مقام التَّصريح بما كُنّيَ عنه، لتقريرِ وصفِ كونهم مرسلين من عندِ الله تعالى، وليصحَّ الاستثناء من أعمِّ أحوالِهم، فيفيد أنَّ كلَّ ما يقولونه هو بمقتضى إرسالِ الله لهم، فيجبُ الائتمارُ بأمرِهم، وفي ذِكْرِهم بهذه الصِّفة مواجهةٌ وردٌّ لأهل الكفر الذين سألوا نبيَّنا ﷺ عن قصَّةِ أصحابِ الكهف وغيرِها من القصص؛ لمحض التَّعنُّتِ والتَّكذيبِ بأنَّ محمَّدًا ﷺ ليس إلّا رسولٌ يكونُ منه التَّبشيرُ والإنذارُ.

فائدة (أل) في قولِه: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

يُفيد (أل) الاستغراقَ ليشملَ اللَّفظُ جميعَ المرسلين، ويدخل فيه

سيّدنا محمَّدٌ ﷺ دخولًا أوَّليًّا بدلالة السّياق الكريم، وفي هذا إقناعٌ لأهل الكفر والشِّرك بالمطلوب مِن ناحيةٍ، وتسليةٌ له ﷺ من ناحية أخرى، عمّا يواجهه من صعوبات الدَّعوة وأعباء الرِّسالة.

احتواء اللَّفظ لسيّد المرسلين تسريةٌ عنه في أزمته مع المجادلين

دلالةُ العدولِ عن لفظِ (الرُّسُلِ) إلى ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، عبَّر الذِّكر الحكيم بصيغة اسم المفعول، للعلم بفاعل الإرسال من الفعل ﴿نُرۡسِلُ﴾، وكان ظاهر السّياق يقتضي أن يُقال: (وما نرسل الرُّسل...)، لكن عُدِلَ عن لفظ (الرُّسُلِ) إلى ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ للإشعار بالمِنّة على المخاطَبين؛ لأنَّ التَّقدير، بمعنى: المُرسَلين إليكم.

إرسالُ المرسلين إلى النّاس مِنَّةٌ من الله عليهم وإيناس

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستثناء المفرَّغ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، أفاد التَّعبيرُ بالاستثناء المفرَّغ فيه أنَّ الاستثناء من أعمِّ عامِّ الأحوالِ، ويُفيد أمرَيْن: أحدهما أنَّ المعنى: ما نرسل المرسلين في أيِّ حالٍ يكونون عليه من الأحوالِ إلّا حالَ كونِهم مُبشِّرين ومُنذِرين، والثّاني: أنَّ نفيَ كلِّ الأحوال والاقتصار على هذَيْن الحالَيْن هو باعتبار كونِهم مُرسَلين، وإلّا فلَهم أحوالٌ أخرى كالمَشْي والأكل والشُّرب وغيرها من أحوالِ البشر.

الاقتصارُ على البشارة والنِّذارة، هو باعتبار وصف الإرسالِ

براعةُ القصرِ في سياق الآيةِ الكريمة:

لمّا كان الَّذين كفروا مُنكرين لإرسال المرسلين، ومُنكرين لكونِهم مبشِّرين ومنذرين، وكانوا يُصرّون على تكذيبِهم؛ عبَّرَ بأسلوب النَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾؛ للإيذان بأنَّهم مُخطئون في اعتقادِهم وفي عملِهم، وأنَّهم باستهزائِهم وجدالِهم بالباطلِ مُصِرّون على هذا الخطأ.

استهزاءُ الكافرين بالمُرسلين ضلالٌ وخطأ مستبين

دلالةُ الحالِ في: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾:

لمّا كان الاستثناءُ من أعمِّ الأحوالِ بمعنى نفي جميعِ الأحوال

ثباتُ وصفِ البشارة والنِّذارة للمرسلين

عن المرسلين سوى حالِ كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ كان المعنى على ثبوت وصفِ الحالِ، بمعنى: أنَّ الحال في الوصفَيْن لازمةٌ غيرُ مُنتقِلةٍ.

فائدةُ العطفِ في: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

اقترانُ البشارة والنِّذارة لكلِّ رسولٍ تكامل وتوازن في المهمَّة

لمّا كان العطفُ على معنى التَّشريك في الحكم؛ فقد أفاد أنَّ كلَّ رسولٍ أرسلهُ الله تعالى لم ينفكَّ عن هذَيْن الوصفَيْن، بمعنى اقترانِهما به، وذِكْرُ الوصفَيْن على الجملة راجعٌ إلى ذِكْرِ البشارة والنِّذارة في مطلع السورة الذي يتأسَّسُ عليه باقي آي السورةِ، قال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [الكهف: 2].

سرُّ ترتيبِ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وعكسِه في مطلع السّورة:

تبشيرُ الرُّسلِ النّاسَ ترغيبٌ في الطّاعة والامتثالِ لأمرِ الله

لمّا تقدَّم وصفُ البشارة على وصف النِّذارة؛ أشعرَ أنَّ الغالبَ على وصف المرسلين هنا هو البشارة، وأنَّها السابقةُ في الوصف وفي الغرض الذي أُرسلوا من أجلِه على الجملة؛ ترغيبًا في طاعتِهم والامتثال لأمرِهم، فإنَّ التَّبشير إخبارٌ، فيه سرورٌ، والإنذار إخبارٌ، فيه تخويفٌ[1]، لكنَّ هذا الترتيبَ عكسُ ترتيب ذِكْرِ البشارة والنِّذارة في مطلع السّورة في قوله سبحانه: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: 2] على النَّحو الَّذي أشرنا إليه، ومقصودها كما قرَّره البقاعيُّ هو وصْفُ الكتابِ بأنَّه قَيِّمٌ؛ لكونه زاجِرًا عنِ الشريك[2]، فسورةُ الكهفِ سورةُ الزَّجرِ عن الكُفْرِ والشِّرْك؛ بدليل إعادة ذِكْرِ النِّذارة، وأنَّها للذين قالوا: اتَّخذ الله ولدًا، قال سبحانه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: 4]، فذِكْرُ المَفْسَدَةِ مُقدَّمٌ على جَلْبِ المصلحةِ هنا، فالأنسبُ بكون السورة كذلك تقديم النِّذارة

(1) الرّاغب، المُفردات: (نذر).
(2) البقاعي، نظْمُ الدُّرر: 4/ 441.

على البشارة، والسياقُ القريبُ هنا سياقُ ذِكْرِ امتناعِ أهل الكفر عن الإيمان، فهو سياقُ ذِكْرِ الموانعِ مِن الإيمان، وقد يكونُ المانعُ - فرضًا - مِن قِبَلِ المرسلين بتقصيرهم في أداء الرسالة وتبليغِها بطريقةٍ تُنفِّرُ الناس منهم ومنها، فدُفِعَ توهُّمُ هذا بتقديم البشارةِ على النِّذارةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يبدؤون أوَّل ما يبدؤون بما يُبشِّرُ، ويُرغِّبُ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل في: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

المُبشِّراتُ أكثرُ من المُنْذِراتِ

عبَّر الذِّكْرُ الحكيم بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ للإيذان بثبات حال وصف التَّبشير والإنذارِ للمرسلين ولزومِه لهم؛ فلا حُجَّةَ لمن امتنع عن الإيمانِ والاستغفار، وأفادت صيغةُ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ تكثيرَ الفعل والمبالغةَ فيه بسبب التَّضعيف في الصِّيغة؛ لأنَّه من (بشَّرَ).

فائدةُ حذفِ مفعول اسم الفاعل:

عِلمُ النّاس لِمَنْ تكونُ البشارةُ له والنِّذارةُ حجَّةٌ عليهم

حُذِف مفعول ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، والتَّقدير: (مُبشِّرين المؤمنين ومُنذرين الكافرين)؛ للإيجاز، وللإيذان بأنَّ المخاطَبين يعلمون مِن سياق الآيات لِمَن تكون البشارة، ولِمَن تكون النِّذارة، فقد ورد عقب الحذف قولُه: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فالحُجَّة قائمةٌ عليهم، فكان ذِكْرُ المفعول عَبَثًا، واعتمادًا على ما في مطلعِ السورةِ مِن ذكرِ أنَّ التَّبشيرَ للمؤمنين، المُفْهِم أنَّ النِّذارة تكون للكافرين، وهذا من وجوه الرَّبط بين ما هنا وبين مطلعِ السورةِ الكريمة.

بديعُ الطِّباق في: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

تنبيهُ النّاس إلى فضلِ المرسلين في التَّرغيب والتَّرهيب

جاء اللَّفظان على طريق الطِّباق؛ للإيذانِ بأنَّ المرسلين مع قومِهم الذين أُرسلوا إليهم على حالَيْن، فهم بين كونهم مبشِّرين وكونهم منذرين، لا ينفكّون عن هذَيْن الحالَيْن، وفيه تنبيهٌ إلى فضل المرسلين على النّاس؛ إذ يرغِّبونهم بطاعة الله لأجل النَّعيم المقيم، ويرهِّبونهم من معصيتِه تحذيرًا من العذاب الأليم، والطِّباقُ حاصلٌ

بذِكْرِ الطَّرفيْنِ معًا، فلو حُذف أحدهما؛ لم يكن، وإنَّما ذُكِرا جميعًا لبيان وظيفةِ الرُّسل؛ دفعًا لتوهُّم أيِّ تقصيرٍ قد يتَّكئُ عليه أهلُ الكفر في امتناعهم عن الإيمان والاستغفار.

فائدةُ الواو في قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾:

لا معنى لاقتراح خـوارقِ الآيـات بعد ظهورِ باهر المعجزات

الواو عاطفةٌ لجملة ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ على قوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، وكِلتا الجملتَيْنِ مُرتبطتان بجُملَتي: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، وترتيبُ هَذِه الجُمَلِ في الذِّكرِ جارٍ على مراعاة أنَّ كُلَّ واحِدَة مِنْها ناشئٌ مَعْناها على مَعْنَى الَّتي قَبْلَها، فلمّا قال: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾؛ أفاد المعنى: أنَّنا أَرْسَلْنا الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ بما فيه مَقْنَعٌ لطالِبِ الهُدَى، ولم نُرسلْهم؛ ليُجادَلوا، ولا ليُتمنَّى عليْهِمُ الاقْتِراحاتُ، ولا ليُقترح عليهم الآيات بعد ظهور المعجزات، ويُعاملوا بما لا يليق بشأنهم، ولَكِنَّ الَّذينَ كَفَروا جادَلوهُم بالباطِلِ؛ لإزالَةِ الحَقِّ لا لقَصْدٍ آخَرَ[1].

وتحتمل الواوُ أن تكون حاليَّة، ليكون مجيءُ الحال لغرض التَّعجيب من حال الذين كفروا؛ إذ يرسل اللّهُ المرسَلين مُبشِّرين ومُنذرين، والحالُ أنَّ الذين كفروا يجادلونهم بالباطل؛ ليدحضوا الحقَّ الذي جاء به المرسلون، بدلًا من إكرامِهم واتِّباعِهم وطاعتِهم فيما أُرسلوا به.

ولَمَّا كان إرسالُ الرُّسلِ مُبشرين ومُنذرين دالًّا على مجيئهم بدلائلَ ومعجزاتٍ وآياتٍ تدلُّ على صدقِ نبوّاتهم ورسالتهم، وكانَ من عادة أهل الباطلِ جدالُهم فيها أو في بعضِها؛ لا لشيءٍ فيها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 149، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 353.

وإنَّما لشيء فيهم أنفسِهم؛ قال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فعطفَه على ما قبلَه؛ لأنَّه من تمام خبرِ قصَّة الرُّسلِ، وطوي ذِكْرُ مجيء الرُّسل بذلكَ، قال أبو السُّعود: "﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: باقتراح الآيات بعد ظهورِ المعجزات، والسُّؤالِ عن قصة أصحابِ الكهفِ ونحوِها تعنُّتًا"[1].

سببُ إيثارِ المضارع ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾:

مجادلةُ الكافرين بالباطل عادةٌ متجدِّدةٌ لا تنقطع

أفاد التَّعبيرُ بالفعل المضارع استمرارَ جدال الذين كفروا بالباطلِ وتجدُّدَهُ؛ كلَّما رأوا الحقَّ، وسمعوه، مع أنَّ الله تعالى أرسل المرسلين مبشِّرين ومنذرين، وليس من أجلِ الجدال وتلبية الاقتراحات، ففي التَّعبير بصيغة المضارعِ تعجيبٌ من حالِهم، وفي إيثارِ التَّعبير بصيغة المضارع استحضارٌ لصورةِ المجادلةِ، ليفيد تقبيحَ حالِهم وتوبيخَهم، وإذا كان الجدالُ في شأن الآيات والدلائلِ، ولم تكن لتكون لهم مرَّة واحدة، بل كانت تأتيهم شيئًا فشيئًا، فكان جدالُهُم متقطِّعًا شيئًا فشيئًا بحسب مجيء الآيات والدلائل؛ نُظِمَ الجدالُ فعلًا مضارعًا، قال البقاعيُّ مُنبِّهًا إلى هذا: "﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أيْ: يُجدِّدون الجدالَ، كلَّما أتاهم أمرٌ من قِبَلِنا"[2]، وأيضًا عبَّر بالمضارع المفيد للتَّجدُّد والاستمرار؛ نظرًا إلى غرضهم من الجدال ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، فإنَّ ذلك الهدف يتطلَّبُ منهم تكرارَ الجدال، وحصولَهُ على الاستمرار.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإشارةُ إلى أصالة الَّذين كفروا في الجدال بالباطل لإدحاض الحقِّ

لمّا كان التَّعبيرُ بالاسم الموصول لإحضارِه في ذهن السّامعين بوساطة ذِكْرِ جملة الصِّلة الَّتي تكون معلومةَ الانتساب إلى مشار إليه عند المخاطَبين؛ دلَّ على أنَّ المخاطَبين كانوا يعلمون أنَّ الَّذين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 509.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 12/ 89.

كفروا هم الَّذين يجادلون بالباطل، أو على أنَّ كونهم الَّذين كفروا في حُكم الأمر المعلومِ للمخاطَب، والَّذي إذا عرفَه؛ لم يُنكرْهُ، وفي الصِّلة تعليلٌ في المعنى لإسناد الجدال إليهم، فإنَّ مَن يُعْرَف بهذه الصِّلة، ويُشهَر بها حقيقةً أو حكمًا؛ حقيقٌ بأن يكون منه ذلك الجدالُ بصفته الَّتي تدلُّ عليها صيغةُ المضارع، وفي التَّعبير بها أيضًا إشارةٌ إلى أنَّه ليس كلُّ جدالٍ يجادلُهُ غيرُ المسلمين هو من الجدالِ المذمومِ والباطلِ، ولكنَّ المقصود من الذَّمِّ ما يكون جدالًا في قضايا الإيمان والكفر، وفي التَّعبير بصلة الموصول إهانةٌ لهم بنسبتِهم إلى الكفر، وإهانةُ كلِّ مَنْ يجادل بالباطلِ[1]، ولمّا جاء بصيغة الفعل الماضي؛ دلَّ على القطعِ بوقوع كفرِهم والجزم باتِّصافِهم به.

مجادلةُ الكافرين في القرآن ومبلِّغه من الجدالِ بالباطل

فائدةُ حذفِ المُجادَلِ فيه في السّياق:

في قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حُذِفَ المجادلُ لإفادة العموم، بمعنى: أنَّ كلَّ الذي جادل فيه الذين كفروا بسبب كفرِهم هو جدالٌ بالباطل، فيدخل فيه مجادلتُهم في القرآن، كقولهم: إنَّه شِعرٌ أو سِحر أو أساطير الأولين، وفي الرَّسول ﷺ، كقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: 94]، وقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: 24]، ووصْفُهم رسولَ الله ﷺ بأنَّه ساحرٌ أو كاهن أو شاعر، وفي اقتراحِهم الآياتِ - كما قال أبو السّعود - تعنُّتٌ منهم بعد ظهور المعجزات، والعمومُ هنا يُشاكلُ العمومَ في ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وفي الحذفِ إنكارٌ عليهم، فالمعنى: جدالُهم، فإنَّ شيئًا ممّا جادلوا فيه لا مجال للجدال فيه؛ إذا أنصفوا أنفسهم وعقولهم، وإذا أنصفوا رسلهم، وعدمُ تسلُّط الجدال على شيء منها قد صوَّر ذلك المعنى، وأنتجَه، فالحذفُ عجيبُ الأمر شبيهٌ بالسِّحرِ.

(1) التّفتازانيّ، المُطوّل، ص: 221.

الإيجازُ في حذف متعلّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

لمّا حُذِفَ متعلَّقُ الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ ولم يُقيِّده بالكُفر باللّه مثلًا؛ أَشعَرَ بأنَّ الكفرَ صار وصفًا ثابتًا لهم، فلا يأتي منهم إلّا ما يُمليه عليهم كفرهم، ومنه الجدالُ بالباطل ليدحضوا به الحقَّ، ويحتمل أن يكون حذفُ المتعلَّق لإفادة العموم، بمعنى: كفروا باللّه تعالى وبالقرآن وبالرَّسول ﷺ، وبكلِّ ما هو حقٌّ يجب الإيمانُ به، وعلى كلٍّ فيظهرُ لنا بحذف المتعلَّق قوَّةُ سببيَّةِ كفرهم في جدالهم.

مَن كفرَ بالرَّسول أو بالقرآن فقد كفر باللّه تعالى

بيانُ متعلَّقِ قولِه: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

يتعلَّق الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بالفعل ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾، بمعنى: أنَّ جدالَهم بالباطل، ويمتنعُ تعلُّقه بالفعل ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّه سيكون بتقدير: كفروا بالباطل، والحالُ أنَّهم كفروا باللّه تعالى، وبالحقِّ الذي يقصدون إدحاضَهُ وإزالتَهُ، ويُشعر مجيء الكلام على مقتضى الظّاهر بتأخير الجارِّ والمجرور؛ ليكونَ لفظ ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ مقترنًا في اللَّفظ بالفعل ﴿كَفَرُواْ﴾: أنَّ كفرَهم باطلٌ، ولا يأتي منه إلّا الباطل، وهذه فائدةُ المجاورةِ؛ فذِكْرُ الباطل بجوارِ الكفر تمكينٌ لقبحه والتَّنفير منه؛ إذ هو سببُ الجدالِ.

الكفرُ باطلٌ، وما أُسِّسَ على باطل فهو باطل

فائدةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

تحتمل الباءُ أن تكون للمُلابَسة، بمعنى: أنَّ مجادلتَهم ملتبسةٌ بالباطل غيرُ منفكَّةٍ عنه، أيْ: إنَّ كفرَهم هو الذي جعل جدالَهم ملتبسًا بالباطل ليدحضوا الحقَّ، كما تحتمل أن تكون للاستعانة، بمعنى: أنَّهم يستعينون بالباطل في جدالِهم لإدحاضِ الحقِّ، أي: ليس لهم لإدحاض الحقِّ إلا الاستعانةُ بالباطل، والمعنى: يجادلونَ باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزات ليعُجِّزوا الرُّسل، أو للتَّشكيك في القرآن، ويكون ذلك سببًا لإدحاضِ الرِّسالة[1].

الكافرون يستعينون لإدحاض الحقِّ بالباطلِ بشتّى الحيلِ والوسائل

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 285، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 196.

فائدةُ التَّقييد بقوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾:

الجدالُ بالباطل مذمومٌ، والجدالُ بالحقِّ محمودٌ

يُحتَمل أن يكون تقييدُ الإسناد بالجارِّ والمجرور ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لبيان الواقع، بمعنى: أنَّ الذين كفروا لا يجادلون إلّا بالباطل، والذي يدلُّ عليه ما تقدَّم من دلالة صلة الموصول على بيان سببِ الحكم، بمعنى: أنَّ كُفْرَهم هو الذي يجعلهم يجادلون، فيكون مجيءُ القيد على سبيل الذَّمِّ، كما يحتمل أن يكون التَّقييدُ بالجارِّ والمجرور لبيان المذموم من الجدال، فإنَّ الجدال هنا عامٌّ يشمل الباطلَ وغيره؛ لأنَّ المُرادَ به هنا المعنى اللُّغويُّ، ويكون مجيءُ الجارِّ والمجرور للاحتراز عن الجدال بالحقِّ الذي يكون ممدوحًا[1]، وفي ذِكْرِ الباطل تهيئةٌ لذِكْر الحقِّ في الجملة التَّعليليَّة لجملة الجدال الَّتي مقطعُها الباطلُ؛ فيترتَّب على ذلك صورةٌ للصِّراعِ الكائن بينهما، وتلك الصّورة الكليَّة من أساسيّات قصة الرُّسل، فلهذا وغيرِه ذُكِرَ الباطلُ، ثمَّ إنَّ إثباتَ الجدالِ لهم يعني: إثباتَ نوعِ رجاحةِ عقلٍ وفكرٍ واستنباطٍ، وما جرى في هذا الطَّريقِ مِن المعنى؛ لما يتبعُه من التَّشكيكِ والأخْذِ والرَّدِّ والاستدلالِ إلى آخِره، كأنَّ هذا الجدالَ يُقابِلونَ به التَّصريفَ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، فدحَضَ القرآنُ ذلك بالتَّقييد بـ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾، فهم يسعون بجدالهم إلى غايةٍ باطلةٍ؛ إذا كانت الباء في: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ للمُلابَسة، وهم يستعينون في جدالهم بالباطل؛ إذا كانت الباء للاستعانة، وعلى كلٍّ، فذلك ينتفي معه كلُّ رجاحةِ عقل وإعمال فكرٍ ونحوِ ذلك.

فائدةُ اللّام في قوله: ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾:

حِرْصُ الكافرين على إبطالِ الحقِّ وسعيُهم له واضحٌ في السّياق

لمّا كانت اللّامُ في قوله ﷻ: ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾، هي لام التَّعليل؛ فقد أفادت أنَّ قصدَ الكافرين بجدالِهم هو أن يُزيلوا الحقَّ، ويُبطلوه، فتُفيد لام التَّعليل حرصَهم على إبطال الحقِّ وسعيهم إليه.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 110، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 285.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾:

تجدُّدُ سعي الكافرين لإدحاضِ الحقِّ كلَّما رأوه متناميًا

أفادتْ صيغةُ المضارع استمرارَ الذين كفروا في إرادتِهم إدحاضَ الحقِّ وسعيهم له، وتجدُّد هذا الفعلِ منهم؛ كلَّما رأوا الحقَّ، وصيغة المضارع هنا تشاكلُ صيغته: ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾، فتلك العلَّةُ دحضُ الحقِّ بالباطلِ حاضرةٌ معهم ومُتجدِّدةٌ مع تجدُّد كلِّ جدال، مع تجدُّد إتيانهم بآية أو بدليل ونحو ذلك، ولَمَّا كان دحضُ الحقِّ ثقيلًا عظيمًا؛ لثقل الحقِّ وعِظَمِه في ذاته؛ كان مِن حالهم أنْ يُجدِّدوا الأسبابَ الَّتي بها يكونُ هذا الدَّحضُ، والمذكورُ منها هنا هو الجدالُ، وهو منظومٌ فعلًا مضارعًا؛ فلوحِظَ في نظمِ الدَّحضِ، فخرج في صورة الفعل المضارع، فكانت صيغتُه تمكينًا لدلالة صيغة: ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾.

براعةُ إسنادِ الإدحاضِ إلى الكافرين:

الكافرون يفعلون كلَّ ما في وسعهم لإدحاضِ الحقِّ

لم يُسنَدِ الإدحاض إلى الجدال، فلم يقُلِ الذِّكر الحكيم: (ليدحض الحقَّ)، فيعود الضَّمير على المصدر المفهوم من الفعل ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾، بمعنى: ليدحض الجدالُ الحقَّ، بل قال: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، فيعود ضمير الجمع على الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للإيذانِ بأنَّهم بذواتِهم يُريدون إزالةَ الحقِّ على سبيل المبالغة في سعيهم لإزالة الحقِّ وإبطالِه، أيْ: إنَّهم يفعلون كلَّ ما تستطيعه ذواتُهم لإدحاضِ الحقِّ، وهذا يعني: أنَّ نفوسَهم تنطوي على رفضٍ شديدٍ للحقِّ، وقَبولٍ شديدٍ للكفر والباطل، وهذا تمهيد وتوطئةٌ قويَّة لمجيء قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ لفظًا ومعنًى ونَظْمًا.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾:

الإشعارُ بقُبح تآمر الكفّار على إدحاض الحقِّ

جاء لفظ ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّةِ، فشبَّه إرادةَ إبطالِ الحقِّ الذي جاء به المرسلون وإزالتِه عن موضعِه الذي استقرَّ فيه، وثبتَ، بإدحاض القَدَم؛ لأنَّ الرِّجْلَ إذا زَلَقَتْ؛ زالَتْ عَنْ مَوْضِعِ تَخَطّيها، فذَكَر المُشبَّهَ به، وأُريد المُشبَّهُ، فهو

من تشبيه المعقول بالمحسوس، وفيه إشعارٌ بقُبحِ كلامِهم ووساختِه؛ لأنَّ الزَّلقَ أكثرُ ما يكون في الوحلِ المُستَكرهِ، وفي الاستعارة مزيدُ بيانٍ لقصدِهم القبيح ولِشدَّة مكرِهم وسعيِهم في إبطال ما جاء به المرسَلون، وجعلِ باطلِهم موضعَ الحقِّ، ويدخل في المعنى ما كان يُجادلُ به كفّارُ مكَّةَ بالباطلِ دخولًا أوَّليًّا[1].

فائدةُ الباء في: ﴿بِهِ﴾:

تنوُّعُ معنى (الباء) من فصيح البيان

في قولِه: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ تحتمل الباء أن تكون للاستعانة، فكأنَّ جدالَهم آلةٌ يستعينون به لقصد إدحاضِ الحقِّ وإزالتِه، كما تحتمل أن تكون سببيَّةً، والمعنى: ليدحضوا بسبب جدالِهم الحقَّ، أيْ: إنَّ جدالَهم بقصد إدحاضِ الحقِّ، وليس بسبب إحقاقِه وإثباتِه.

دلالةُ مرجعِ الضَّمير ﴿بِهِ﴾ وتقديمه على المفعول:

الجدالُ بالباطل نوعٌ من أساليب إدحاضِ الحقِّ

يعود الضَّميرُ في قولِه: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ على المصدر المفهوم من الفعل ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾ بما اتَّصف به، والتَّقديرُ: (ليدحضوا بجدالِهم بالباطلِ الحقَّ).

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ للإيذان بعنايتِهم بجدالِهم واهتمامِهم به على سبيل تمسُّكِهم به لقصد إزالةِ الحقِّ وإبطالِه، وليس في التَّقديم معنى التَّخصيص؛ لأنَّهم لم يكتفوا بالجدال بالباطل؛ بل قاتلوا رسولَ الله ﷺ بقصد إدحاض الحقِّ كذلك، وفيه أنَّهم لم يجدوا في الحقِّ مجالًا لنقده، أو نقضه واتهامه والتشكيك فيه، وما جرى في هذا الطريق من المعنى، فلم ينظروا إلى الحقِّ فضلًا عن أن يحتفلوا بالنَّظر فيه؛ وإنَّما كان نظرهم في جدالهم نظامًا وأسلوبًا واستدلالًا وغير ذلك، وكان احتفالهُم مقصورًا على ذلك.

(1) الزّمخشريُّ، أساس البلاغة: (دحض)، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 110، والآلوسيُّ، روح المعاني: 8/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 353.

دلالةُ (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡحَقِّۖ﴾:

الجدالُ في الحقِّ باطلٌ، ولا يجوز الجدالُ في الحقِّ

(أل) هنا جنسيَّةٌ لتُفيد استغراق كلِّ أنواع الحقِّ الذي جاءهم، فيشمل رسالةَ سيّدنا محمَّد ﷺ، ويدخل فيه القرآنُ الكريم دخولًا أوَّليًّا، ولمّا جاءت جملة ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ معطوفةً على ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾؛ دلَّ على أنَّ الحقَّ مع المرسلين، وأنَّ تبشيرهم وإنذارَهم حقٌّ، وهذا مِن دلالة المجاورة.

بلاغةُ الكنايةِ في سياق الآية المحكمةِ:

جدالُ المسلمين لإظهار الحقِّ، وجدالُ الكافرين لإدحاضِه

نجد في قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أنَّه لمّا كانت غايةُ الكافرين من الجدال هي إدحاض الحقِّ وإبطاله؛ أفاد بلازمِه أنَّ جدال المسلمين يكون لإظهار الحقِّ لا لإدحاضِه، وهو محمودٌ، ولهذا ذمَّ الله تعالى جدال الكافرين، فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4]، وحثَّ على أن يكونَ جدال أهل الكتاب بالَّتي هي أحسن، فقال تعالى في العنكبوت: ﴿*وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]، فلا تدافع في آيات الجدال[1]، وإنَّما لم يُنَصَّ على جدالِ أهل الإيمان لإظهار الحقِّ؛ لأنَّه يكون نتيجةَ الصَّدِّ عن سبيلِ الله الحقِّ بالجدال فيه بالباطلِ لدحضه.

بديعُ الطِّباق بين ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ و﴿ٱلۡحَقِّۖ﴾:

الحقُّ والباطلُ ضـــــدّان لا يجتمعان أبدًا

عبَّر بطريق طباقِ الإيجاب بين لفظَي الباطل والحقِّ لإظهار الفرق بينهما، فالحقُّ هو الثّابت الذي لا يُسوَّغ إنكارُهُ ولا إبطالُه، وهو مأخوذٌ مِن: حقَّ الشَّيءُ يحِقُّ؛ إذا ثبت ووجب، ونقيضه الباطل، وفي الطّباق إيذانٌ بأنَّ الحقَّ الذي يُرسَلُ به المرسلون نقيضُ الباطلِ الذي يُجادل به الكافرون، فالحقُّ والباطل لا يجتمعان أبدًا، وهذا

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 317.

الطّباقُ هو نتاجُ النَّظْم؛ فمجيءُ الباطل في قوله: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ كان لسبب يقتضيه السّياقُ، وعُبِّرَ بالحقِّ؛ لأنَّه المقابلُ للباطل؛ لتتكوَّنَ للصِّراعِ البشري العَقَديِّ صورةٌ كلية، وفي التعبير به إيماءٌ إلى نتيجة هذا الصِّراع، وهو بقاء الحقِّ بما فيه من معنى الثبات والوجوب.

بلاغةُ الوَصْلِ في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

عُطفت هذه الجملةُ على جملة ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ للإيذانِ بأنَّهم ما قَصَدوا من المجادَلَةِ الاهتداءَ بما جاءهم، ولكِنْ أَرادوا إدحاضَ الحقِّ واتِّخاذَ آياتِ اللّه وما أُنذروا هزوًا[1]، أو يكون العطفُ على معنى التَّرقّي في قُبح عملِهم وقولِهم، أيْ: لم يكتفوا بالجدال بالباطل، بل زادوا عليه اتِّخاذَ آيات اللّه وما أنذروا هزوًا.

الاستهزاءُ بآيات اللّه أقبحُ من المجادلة بالباطلِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

تقدَّمَ أنَّ الذِّكر الحكيم قد عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾؛ لإفادة استمرارِ حالِهم في جدالِهم بالباطل وتجدُّده، وفيه إشعارٌ ببقاء الحقِّ ودوام ظهوره، ولمّا كان اتِّخاذُ الاستهزاء أمرًا واحدًا يكون مرَّةً واحدةً، فإذا تكرَّر؛ تكرَّر بجملته، وكان المُرادُ بيانَ أنَّ اتِّخاذهم آياتِ اللّه وما أنذروا هزوًا أمرٌ مقطوعٌ به؛ عُبِّرَ عنه بصيغة الماضي، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾[2].

أهميَّةُ مراعاةِ المعنى والمقامِ في مجيء الفعل ماضيًا أو مضارعًا

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الاتخاذ:

لمّا كان الاتِّخاذُ بمعنى تحصيلِ الشَّيءِ بقوَّةٍ وتمكُّنٍ منه؛ أفاد التَّعبير بـ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أنَّهم كانوا في غاية الاستهزاء بآيات اللّه وما أُنذروا به، وأنَّ استهزاءهم كان بقوَّة، وأنَّهم كانوا حريصين عليه غيرَ راغبين في تركِه، وهذا مؤسَّسٌ على علَّة الجدال: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، فهذا الدَّحضُ يلزم منه أن يكون جدالُ أهلِ الكفرِ قويًّا، واستهزاؤهم قويًّا.

إفادةُ قوَّةِ الجدال بآيات اللّه وما أُنذروا به

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 353.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 90.

دلالةُ قوله: ﴿ءَايَٰتِى﴾ وفائدة الإضافةِ فيها:

أفاد التَّعبيرُ بـ﴿ءَايَٰتِى﴾ عمومَ آيات اللّه تعالى، فيشمل كلَّ آيات القرآن، وعلامات الرَّسول ﷺ قولًا وفعلًا[1]، وتُفيد إضافة (آياتِ) إلى ضمير ياء المتكلِّم اختصاصَ الآيات به ﷺ، لتفيدَ الإضافةُ تشريفَ الآيات وتعظيمَها، فهي آياتُ الإله الواحد الأحدِ، كما تُؤْذِن الإضافة بأنَّ تعظيم آياتِ اللّه تعظيمٌ له ﷺ، وهذه الإضافةُ تدلُّ على ظهورِ الألوهية والرُّبوبية جلالًا وجمالًا في الآيات، فكيف يكون منهم أدنى استهزاء بها، فضلًا عن أن يكون منهم استهزاءٌ قويٌّ بها؟ إنَّ في الإضافة إنكارًا بالغًا لذلك، وتشهيرًا بقبحهم، وتعريفًا بظلام قلوبهم وتعطيل عقولهم وعمَى أبصارهم وبصائرهم.

لا تكونُ الآيةُ خارقةً ومدهشة إلّا إذا كانت من الله دون سواه

دلالةُ عرض الخبرِ في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾:

لمّا كانت إضافةُ الآيات إليه سبحانه على معنى تشريفِها ورفعةِ منزلتِها وعلوِّ شأنِها؛ أفادت أنَّ الإيمانَ بها هو من الإيمان باللّه تعالى، لكنَّهم بدلًا من أن يؤمنوا بها، ويُقدِّروها، ويُعظِّموها، اتَّخذوها هزوًا، فجاء الكلامُ على طريقة الخبر ليدلَّ على الوعيدِ والتَّهديدِ لمَن يتَّخذُ آياتِ اللّه هزوًا[2].

بيانُ أنَّ شدَّة الوعيد مزجاةٌ لمَنْ يتَّخذُ آياتِ الله هزوًا

فائدةُ العطف في: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾:

العطفُ في قوله: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ للاهتمام به، فيكون الكلامُ على الإطنابِ، والمعنى: اتَّخذوا آياتِ اللّه كلَّها وبخاصَّةٍ آيات الإنذار هزوًا، أيْ: كان ينبغي عليهم أن يتَّعظوا بها لا أنْ يستهزئوا بها، فكان عطفُ ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ على ﴿ءَايَٰتِى﴾ أَبْلَغَ في الدَّلالَةِ على تَوَغُّلِ كُفْرِهم وحَماقَةِ عُقولِهم[3]،

تعظيمُ الاستهزاء بآياتِ الإنذارِ، ومنها الاستهزاءُ بعذابِ النّار

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 525، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 194.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 729، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 2/ 729، والعُكْبَري، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 852، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 353.

وعطفُ بعض جزئيات الكلِّ على الكلِّ تنبيهٌ على كون المعطوف أعظمَ جزئياتِ الكلِّ في السياقِ، والسورةُ مؤسَّسةٌ على الاحتفال بهذا الإنذارِ؛ لأنَّهُ تعالى ذَكَرَ في مطلعها أنَّ القرآنَ يُنذر الذين قالوا: اتخذ الله ولدًا، مِن بعد أن ذكَر النِّذارة والبشارة مُسنَدتَيْن إلى الكتابِ، واختصاصُ ما أنذروا به مِن الآيات بالذِّكْرِ؛ لبيان أنَّ آيات الإنذار كانت تستثيرُهم، وتُخوِّفُ جِبِلَّاتِهم، وتُزلْزِلُ أركانهم، فيُخفون ذلك، ويُظهرون الاستهزاءَ، ولبيان أنَّهم قومٌ قسَتْ قلوبُهم، وغابَ منها جلالُ الله كما غابَ منها جمالُهُ حين رتَّبوا على التَّصريفِ في القرآنِ مِن كلِّ مثَلٍ، وعلى إتيان الرُّسُل بالآيات المُبشِّرة: الجدالَ، وعدمَ الإيمان، وترْكَ الاستغفار.

دلالةُ ﴿وَمَآ﴾:

تنوُّعُ الدَّلالة يُفيد سعةَ المعنى وتنوُّعَهُ

الظّاهر أنَّ ﴿وَمَآ﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ موصولة بمَعْنَى (الَّذي)، والعائِدَ مَحْذوفٌ، والتَّقدير: (واتَّخذوا آياتي والَّذي أنذروا به أو أنذروه هزوًا)، ليفيد أنَّ سبب استهزائِهم بها، هو كونُها آياتِ إنذارٍ لهم، وذلك تعجيبٌ لحماقتِهم، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ ﴿وَمَآ﴾ مَصْدَريَّةً، والتَّقدير: (واتّخذوا آياتي وإنذارهم هزوًا)[1]، ليُفيد مبالغتَهم في استهزائِهم؛ إذ استهزؤوا بعين الإنذار الذي يستلزم استهزاءَهم بالمنذَرين به، وهذا مؤسَّسٌ على الاستعارة في قوله تعالى: ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾، ومآلُ الوجهَيْن واحدٌ، إلّا أنَّ الثّاني أعمُّ وأبلغ مِن الأوَّل، وهو الأبرُّ بالاستعارة المذكورة.

نكتةُ التَّعبيرِ بما لم يُسمَّ فاعله في ﴿أُنذِرُواْ﴾:

بيانُ أنَّ استهزاءَ الكافرين بالإنذار هو استهزاء بالمرْسَل

عبَّرَ بصيغة البناءِ لما لم يُسمَّ فاعلُهُ؛ لأنَّ الفاعل معروفٌ، أيْ: وما أنذرهم المرسلون به، لتقدُّم الإشارة إليه في قوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، فكان الغرضُ ذِكْر المُخيف، وهو الذي أُنذِروا بهِ، أو

(1) البغويُّ، معالم التّنزيل: 3/ 201.

إنذارهم[1]؛ لأنَّ الرَّسول ليس إلّا مُبشِّرًا ومُنذِرًا، فلا مدخل له في التَّخويف، فكان استهزاءُ الأقوام الكافرين بالرُّسل أنفسِهم في الحقيقة استهزاءً للإنذار وما أنذروا به.

معنى حذفِ الجارِّ والمجرور في: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾:

الاستهزاءُ بالقرآن استهزاءٌ برسولِ الله وبعذابه في الدّارين

لمّا كان الظّاهر أنْ تكونَ ﴿وَمَآ﴾ اسمًا موصولًا؛ كان حذفُ العائد على خلاف مقتضى الظّاهر، والأصل: (وما أُنذِروا به)، ونكتته ظهورُ المُراد بقرينة السّياق، والإشعارُ بعموم استهزائِهم وسخريَّتِهم لكلِّ ما أُنذروا به، والمُراد استهزاؤُهم بالقرآن وبجميع ما أنذرهم به الرسول، ويدخل فيه استهزاؤهم بالعذاب في الدنيا والآخرة دخولًا أوَّليًّا[2]، وفي الحذف أيضًا إشارةٌ إلى حقارة مدلوله وضآلته وصغره في أبصارِهم وبصائرهم، فقد هانَ عليهم، وضعُف عندَهم، وحقُر، فيكونُ الحذفُ على هذا تمهيدًا قويًّا لذِكْر المفعولِ الثاني الذي تتمُّ به الفائدةُ، وهو قوله: ﴿هُزُوًا﴾.

فائدةُ الوصف بالمصدر ﴿هُزُوًا﴾:

بيانُ اتِّخاذهم ما أنذروا به هزوًا وسخرية

لمّا كان لفظُ ﴿هُزُوًا﴾ مفعولًا ثانيًا؛ كان على تقدير الوصف للمفعول الأوَّلِ ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾، فالتَّقديرُ: (واتّخذوا ما أنذروا هزوًا)؛ بدلالة العطفِ بالواو، ولمّا كان ﴿هُزُوًا﴾ مصدرًا؛ أفاد المبالغةَ في الوصف، فكأنَّهم اتَّخذوا ما أُنذروا عينَ الهزوِ، أو المعنى على تقدير مُضافٍ قبل المصدر، أي: اتَّخذوا ما أُنذروا موضعَ استهزاءٍ[3]، والحملُ على الوصفِ بالمصدر في المعنى دون تقدير مضاف هو الأبلغُ في تصوير حال المُحدَّثِ عنهم الذين قصدوا، وسعوا بأنفسهم إلى هدم الحقِّ ودحضه على ما يفهمه قولُه: ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾،

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 12/ 90.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 729.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/ 729، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 110.

دون (ليدحض به الحقَّ) على أنَّ الفاعلَ ضميرُ المصدرِ المفهوم مِن الفعل (يجادل).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبعث:

الإرسالُ حملُ رسالةٍ إلى المُرسَل إليه

الإرسالُ يقتضي حملَ رسالةٍ أو خبرٍ إلى المُرسَل إليه، مع تُؤدةٍ في الإرسالِ وسهولةٍ ولطفٍ فيه، والإرسالُ يُشعر أنَّ المرسِلَ مُنْعِمٌ على المُرسَل إليه؛ لأنَّ الإرسالَ يقابل الإمساكَ، وأمّا البعثُ؛ فإنَّه يجوز أن يكون المبعوث لأمر يخصُّه دون المبعوث إليه، فلا يُشترط فيه أن يكون لإرسال رسالةٍ إلى المبعوث إليه، كما أنَّ البعثَ فيه تهييجٌ وإثارة للشَّيءِ مع توجيهه، ومنه: بَعَثْتُ البعيرَ أثرتَه وسيَّرتَه، ويُقال: بعثُ الموتى، ولا يُقال: إرسالُ الموتى، فالبعثُ يُستعمل فيما يكون فيه حركةٌ وإثارةٌ[1].

البعثُ إرسال لرسالة أو غيرها

الإنذار والتَّخويف:

الإنْذار تحذيرٌ من مكروه متوقَّع، والتَّخويفُ إعلام بالخطر والضَّرر

الإنْذار تخويفٌ من مكروه سيقع مع إعْلام مَوضِع المَخافة والتَّحذير منه، من ذلك قَوْلُك: نذرتُ بالشَّيْء؛ إذا عَلِمتَهُ، فاستعددتَ له، فإذا خوَّف الإنْسانُ غيرَه، وأعلَمَهُ موردَ المَخافةِ وحذَّره منه، فقد أنذره، وإن لم يُعلمهُ ذَلك؛ فلا يُقال: أنذره، والنَّذر ما يجعله الإنسان على نفسِهِ؛ إذا سلم ما يخافه، كما أنَّ الإنذارَ فيه إحْسانٌ من المُنْذِر لتحذير المُنذَر وإعلامِه بموضعِ المخافةِ، وكلَّما كانت المخافةُ أشدَّ؛ كانت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النَّبيُّ أعظمَ النّاس منه بإنذاره لهم عقابَ اللّه تعالى، وقد وُصف الرُّسل بالمُنذِرين، ولم يوصَفوا بالمُخوِّفين، فالتَّخويف توقُّع مكروهٍ في المستقبل من غيرِ إعلامٍ بموضع المخافة ولا التَّحذير منه، كما

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بعث)، و(رسل).

أنَّ التَّخويف فيه إرعابٌ، والإنذار فيه تحذيرٌ، وضدُّ الخوف الأمنُ، وضدُّ الإنذار التَّبشيرُ[1].

الدَّحْض والدَّفع:

الدَّحض هو إزالة ما فيه ثِقَلٌ من موضعٍ، وقد يُقصد أن يكون مكانه شيءٌ آخر، فعُبِّر في الآية الكريمة ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ عن قصدِهم إزالة الحقِّ ووضع الباطل مكانه بالدَّحض لقوَّة الحقِّ وثباتِه، وأمّا الدَّفع؛ فهو صرفُ الشَّيْء قبل الوُرود، والرَّدُّ هو دفع الشَّيء وإرجاعٌ إلى خلف بعد أن كان مُسترسلًا[2]، ولا يناسب هنا ذِكْر الدَّفع ولا الرَّدِّ لانتفاء مناسبتهما للمقام؛ لأنَّ الحقَّ واردٌ، وقد ثبت بإرسال المُرسَلين، والذين كفروا يُريدون إزالةَ الحقِّ وجعْلَ الباطلِ مكانه.

الـدَّحـضُ هو إزالة ما فيه ضرر واسـتـبـدالـه، والـدَّفـع صـرفُ الـشَّيْء قـبل وُروده

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242، والراغب، المفردات: (نذر).

(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (دحض)، (دفع)، (ردد)، والكفوي، الكلّيّات، ص: 450.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»